سيدنا

للأستاذ أحمد أمين

كان لسيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن كتّاب في حي وطني في قسم الخليفة ، أسلمني له أبي وأنا في السادسة من عمري .

كان هذا الكتاب بيتاً من بيوت الوقف ، يتكون من طابقين ، طابق أرضي فيه حجرتان احداهما سبيل لسقي الماء كان قد هجر عندما ذهبت اليه ، والأخرى لسيدنا ينام فيها أحياناً ، وفي الطابق العلوي حجرتان كذلك ، احداهما لأولاد الكتاب يقرأون فيها ، والأخرى لسيدنا أيضاً ، وبين الحجرتين «فسحة» في أحد أركانها زير ماء لا تعرف لونه مما توالى عليه من أحداث الزمان ، وعليه غطاء من خشب ، قد كسر ولم يهتم أحد باصلاحه ، وعلى الغطاء كوز صفيح قد شُد بحبل في مسمار في الحائط ، حتى لا يذهب به الأولاد من مكان الى مكان ، وخشية أن يقع الكوز في أسفل الزير ، فاذا كان مربوطاً ووقع استطعنا أن نشده بالحبل ، والماء إن تلوث بوقوع الحبل فيه ، فهو أقل ضرراً من مد اليد عارية وغوصها لاستخراجه .

وأدوات الكتاب : حصير فرش على البلاط ، يبلى أحياناً فتتناثر عيدانه ، ومع ذلك يبقى الى أن يحتن الله على سيدنا فيشتري حصيراً جديداً ، وصندوق من صناديق السكر أو الجاز وضع في زاوية من زوايا الحجرة ، نضع فيه ألواحنا — وهذه الألواح أكثرها صفيح ، تسوَدّ أحياناً ويذهب طلاؤها حتى لا تتبين الكتابة منها — وكيف يبين أسود من أسود ؟ وأقلها خشب قد طلي بدهان أبيض ، وله أطار لُوِّنَ بلون بُني ، وذلك خاص بأولاد الذوات وأشباههم .

هذا كل ما بالكتاب من أدوات ، ومعاذ الله أن أنسى شيئاً أهم من ذلك كله ، وهو مجموعة عصي من جريد النخل ، تختلف طولاً وقصراً ، أما القصيرة فيستعملها سيدنا لمن يُسمِّع عليه اللوح أو « الماضي » فيخطىء فتدركه هذه العصا ، وأما الطويلة فعند ما يرى سيدنا طفلاً في آخر الحجرة لا يهتز وقت قراءته أو يتهاون في حفظه ، فما يشعر إلا والعصا الطويلة نزلت عليه وصحبها من سيدنا « اهتز يا ولد » — وقد كان لهذه العصي ما طال منها وما قصر ، أثر في نفوسنا لا ينكر ، فكثيراً ما رعبنا لأن خيالنا صوّر لنا أن سيدنا يريد أن يهوي علينا بعصاه ، وفي الواقع لم يكن شيء من ذلك ، وإنما هو الرعب ملك نفوسنا ، ويحصل هذا أحياناً حتى في البيت ، فننسى أننا خرجنا من الكتاب ، وأننا بين أهلينا ، فنرتجف بغتة لحركة تشبه حركة سيدنا في الكتاب .

وإلى جانب هذه العصي « فلقة » وهي عصي غليظة من خشب متين قد ثقب في وسطها ثقبان يبعد ما بينهما نحو شبر ، وركب في هذين الثقبين سير من جلد أو نحوه ، فاذا شكا الولد أبوه أو غضب عليه سيدنا أدخل رجليه في هذا السير ولواه عليهما ، وأمسك بطرفي الفلقة ولدان كبيران شديدان من أولاد الكتاب ، فلم تستطع الرجلان حركة ، وانهال عليه سيدنا ضرباً بالعصا والولد يصيح « في عرضك ياسيدنا » « حرمت » « أتوب » ! ولست أنسى مرة أفرط فيها سيدنا فشق عقبي وسال منه الدم ؛ وكان عزائي الوحيد أني مكثت بعيداً عن سيدنا نحو أسبوعين .

وهذا كل ما كان في الكتاب من « موبليات » .

كان سيدنا يحفظ القرآن حفظاً جيداً ، ويكتب كتابة عاجزة ، وهذا كل ماله من ثقافة ، كان يطوف في الصباح على البيوت يقرأ فيها ما تيسر من القرآن ، ويخرج من بيت إلى بيت حتى يتم دورته ، وكان موظفاً في مسجد يؤذّن فيه ، فاذا حان وقت الظهر أو العصر خرج من الكتاب للأذان والصلاة — وفي غيابه صباحاً أو ظهراً أو عصراً يتركنا لعريف يقوم مقامه ، ولكن كان العريف ولله الحمد أهون علينا من سيدنا ، فكنا نتنفس الصعداء إذا خرج ، ونصاب بالرعشة إذا حضر .

وكان برنامج الكتاب ينحصر في كلمة هي « تحفيظ القرآن » فيبتدىء بتعليم حروف الهجاء على طريقة غريبة ، فأول درس كان هو « ألف » وهي كلمة حفظتها ولم أفهمها إلا وأنا طالب في مدرسة القضاء . إذ فهمت أننا لو تهجينا كلمة ألف لكانت ألفاً ولاما وفاءً ، وما أدري ما السر في هذا البدء على هذا الوضع — حتى إذا عرف الولد شيئاً من القراءة والكتابة بدأ بكتابة جزء من القرآن في اللوح يحفظه كل يوم وهو في اثناء ذلك « يثبت الماضي » ويمضي النهار كله في هذا الباب ، فلا إملاء ولا حساب ، ولا يعرف سيدنا شيئاً من ذلك ، ولا نستريح من هذا العمل إلا وقت الغداء - فاذا حان الظهر جمع « سيدنا » من كل ولد مليمين أو ثلاثة

أو خمسة ثم بعث بولد كبير فأتى له بماجورين مملوءين ، أحدهما فيه قليل من تمر نابت وكثير من مرق ، والآخر مملوء خلالا بماله وخله ، وتحلق الأولاد حلقة ، وأخرج كل رغيفه ، وكان قد أحضره معه في الصباح تحت إبطه ، وضربوا بأيديهم في الماجورين وأكلوا هنيئاً مريئاً — وقد رحمني الله من تمثيل هذا الفصل إذ كان بيتنا بجوار الكتاب أستطيع أن آكل فيه وأعود — وبين هؤلاء المريض والقذر ومن تلوثت يده بالحبر .

لا تعجبنْ من هالك كيف ثوى بل فاعجبن من سالم كيف نجا

* * *

كان « سيدنا » غريب الأطوار عرف في الحي باسم الشيخ سيد المجذوب ، يلبس المرقع من الثياب فلم أره يوماً لبس «مركوبا» جديداً ولا عمة نظيفة ولا قباء ولا عباءة جديدين ، فكأنه كان يتحرى القديم من كل شيء ويشتريه ، كان يتزهد في أكله ولبسه وحديثه ، ويهزأ بالناس ولا يعيرهم التفاتا ، فهو يمشي مسرعاً مشياً يشبه الجرى ، ويأكل في الشارع وهو على هذه الحال ، وإذا ناداه منادٍ لا يلتفت إليه ، فكان بذلك يلفت أبصار الناس والأطفال ، ويعجب منه بعضهم ، ويتبرك به بعضهم ، وكان في المجالس العامة غريباً ينتحي ناحية وحده ويفر من الناس ويستوحش منهم ، وفي مجالسه الخاصة واعياً أنيساً لطيفاً .

لم أره مرة يقرأ في كتاب ، وما أظنه كان يعرف ذلك ، ولكني مع هذا أذكر له حادثة حيرتني حقاً — فقد خرجت من كُتّابه ، وأتممت التعليم في مدرسة ابتدائية ، ثم قطعت مرحلة بعدها في التعلم — ثم ذهبت إلى مدرسة القضاء ومكثت فيها نحو أربع سنوات ، ثم لقيت سيدنا في الطريق فسلمت عليه في احترام واجلال اعترافا بفضله عليّ في أول مراحل التعليم ، ولكني أطوي بين جنبيّ إجلالاً بنفسي عليه ، فأين هو الآن مني ؟ لقد درست طبيعة وكيمياء ، ودرست رياضة نظرية واسعة من حساب مثلثات وتوافيق وتراتيب ولوغارتمات ، ودرست علوما دينية مختلفة الأشكال والأنواع ، وعلوما مدنية من تاريخ وأصول قوانين ونظام ادارة وما إلى ذلك — فأين سيدنا من هذا كله وهو لا حظ له من علم إلا أن يحفظ القرآن ، ولكن ما أدهشني حقاً أنه أخذ يسألني عن حالي وجرى من ذلك إلى الأدلاء برأيه في العالم وفلسفة الكون عن طريق صوفي ، فاذا أنا أسير معه ملتذاً من حديثه معجبا بقوله إعجابا يفوق ما كنت أضمره لأساتذتي في المدارس العالية ، واذا أنا أذهب معه حيث يذهب وأجلس معه حيث يجلس حتى أتم حديثه الممتع اللذيذ في ساعتين أو أكثر ، ولوددت أنه طال أكثر مما كان — لست أذكر الآن حديثه وقوله ، ولا أذكر ماذا كانت نظراته في الحياة ، ولكني أذكر لذة حديثه وفائدة درسه .

* * *

ثم راحت أيام وجاءت أيام ، وإذا لي ولد ، وإذا بي أرسله إلى « روضة الأطفال » ، وإذا مكان الكُتّاب ذي السبيل والحصر ، بناء فسيح ذو حديقة غناء ، وتخت وأدوات شتى ، ومكان العصى و « الفلقة » ، بيانو وآلات موسيقية ، ومكان مواجير الفول والحلل ، لبن وبسكوت في الساعة العاشرة ، وأكل نظيف يشرف عليه الطبيب في الظهر ، ومكان برنامج كتابنا الذي ليس فيه إلا حفظ القرآن برنامج دقيق مفصل محدود بالساعة والدقيقة فيه غناء وفيه لعب ، وفيه مبادىء القراءة ، وفيه ماشئت من تنوع واختلاف ، ومكان سيدنا الشيخ سيد عبد الرحمن آنساتنا المزيزات .

وأتى ابني يوماً يقول إن « أبلة » فلانة علمتهم اليوم درساً جديداً ، قالت هذه « ستى » ا ، وهذه « ستى » ب ، وستى ا لا شيء عليها ، وستى ب من تحتها نقطة ، فقلت أين هذا مما كنا نتعلمه من ألف ، بابا ليف ، بوبا واو بي با يه » .

ورأيته ينشد أناشيد « سمير الأطفال » ونحوها فقلت أين أنت من أبيك ، وقد كان ينشد في العصر قبل الذهاب إلى البيت الأناشيد الدينية .

ورأيته يزكم فيجلس في البيت ثم يذهب إلى المدرسة فتأبى عليه إلا أن يأتي بشهادة طبيب بأنه بريء ولم يكن مريضه معدياً ، فقلت لحا الله زماناً لم نكن نعرف فيه طبيباً ، وكان حولنا في الكتّاب مرضى لا يعرفون أن الزكام مرض ، وكان أصحاؤهم ومرضاهم يشربون من زير واحد بكوز واحد .

ورأيته في سنه لا يحفظ شيئاً ، وكنت وأنا في سنه أحفظ جزءاً كبيراً من القرآن .

ورأيته يعرف من الأشغال اليدوية والرسم والتلوين مالا أعرفه إلى اليوم .

[البقية في أسفل الصفحة التالية]